الشيخ علي الرمضان الأحسائي

طائرٌ مهاجر.. بين الغربة والحنين إلى الوطن

محمد علي الحرز

المشاعر الوطنية وحب الوطن من الأمور التي تنغرس في نفسية كل إنسان، تنمو معه وترافقه في سنين حياته، وقد يزداد الحنين والشوق كلما بعد عن الديار وطاف به طيف الأحبة والأصدقاء، ودغدغه نسيم الوطن ورياحه، فتتأجج الأحاسيس، وتغمر القلب البسمة، ويتحرك في الفكر الخيال، وتشرد النفس، هنا تنقلب الغربة كربة، والوحدة عناء ويطرق الروح باب العودة إلى الوطن من جديد.

والشاعر علي الرمضان نموذج الطائر الأحسائي المهاجر الذي أبعده القدر ونوائب الدهر عن وكره وعرينه، فصار ينشد العود واللقاء بفراخه وأليفه، فدب في قلبه الحزن وأصبح حبيس الهم والحزن الذي لا يفارقه، فقد شبه نفسه بالطائر المتغرب فقال:

تركنا لكم حيث التغرب طائراً ينوح على الأفراخ والإلف والوكرِ

وفي هذا المقال حاولنا أن نجوب حياة هذا الشاعر الطائر الأحسائي الذي شرده الدهر فأصبح كالطائر الرحَّال يجوب الديار بحثاً عن مأوى وعش يستقر فيه إلا أن روحه بقيت معلقة ببلده الأحساء ومرابع الأهل والأحبة فكانت سيرته وشعره يمتاز بالتالي:

- إنه شاعر الشيخ الشهيد علي الرمضان من العيار الأول الذي يتمتع بقريحة شعرية راقية وخيال واسع قلما تجده في الشعر الأحسائي القديم.

- شعره يعتبر وثيقة تاريخية وجغرافية واجتماعية تستطيع من خلاله أن تكون رؤية مغايرة عن غيره من الشعراء.

- أمتاز الشاعر بخوضه فنون الشعر المختلفة، بل الشاعر الأحسائي الوحيد من القرن الثالث عشر الهجري الذي بين أيدينا له قصائد في أبواب الشعر التي اعتاد يتطرق لها فحول الشعراء، مما يجعلنا نعيش أعماق الشاعر وتغيرات حياته حُلوها ومرَّها.

- الشاعر الرمضان هو نموذج الشاعر الوطني الأحسائي الذي تعلق ببلاده ووطنه وقد عبر عن ذلك الحب والشوق شعراً ونثراً.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

– أعتقد إن حياة الشاعر مليئة بالغموض والمفاجآت التي تستحق الدراسة والبحث والتأمل، ومن خلال هذا المقال أحاول لفت النظر لعلم لامع لم ينل حقه من الدراسة والتأمل والتدقيق.

الشاعر الرمضان ..سيرة ذاتية:

الشهيد الشاعر الشيخ علي بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله بن الشيخ حسن بن الشيخ بن الشيخ علي بن الشيخ عبد النبي آل الرمضان الأحسائي.

ولد بمدينة الهفوف حدود العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر الهجري، فنشأ وسط محيط علمي وأدبي على يد والده العلامة والأديب الكبير الشيخ محمد بن عبد الله آل رمضان(صاحب قصيدة خير الوصية)، الأمر الذي انعكس على شخصيته فأسهم في بنائه العلمي والأدبي واتساع قابلياته.

أساتذته وشيوخه:

تلقى الشيخ علي علومه ودراسته على عدد من الأعلام في عصره عرفنا منهم:

– والده الشيخ محمد بن عبد الله الرمضان(ت ١٢٤٠هـ).

– السيد حسين بن السيد عيسى بن السيد هاشم التوبلي البحراني.

– السيد صدر الدين بن صالح بن محمد الموسوي العاملي(١١٩٣– ١٢٦٤ هـ).

– الميرزا السيد سليمان الحسيني الطباطبائي النائيني اليزدي (توفي حدود ١٢٥٠هـ).

– الشيخ عبد المحسن بن الشيخ محمد اللويمي الأحسائي(ت١٢٤٥هـ)، من أبرز شيوخه وأقربهم إليه.

– الشيخ محمد بن عبد علي آل عبد الجبار القطيفي(ت ١٢٥٣هـ)، ويظهر أنه تتلمذ عليه وكانت بينهما علاقة وصحبة، حتى أنه أمره أن يكتب قصيدة كمقدمة لكتابه في الرد الزيدية[١].

هجرته:

هاجر من وطنه الأحساء حدود سنة ١٢١٠هـ، فعشق حياة التنقل والترّحَال، فكان كثير السفر بين البحرين وإيران التي تنقل بين مدنها، ولعل أكثر مدينة أقام بها شيراز وله فيها

[١] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، محمد الحرز، دار البيان العربي: بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م:٦٦.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

قصائد وأشعار، وفيها التقى أغلب أساتذته، إلا أنه كان طوال تلك الرحلات كثير التحنن والتشوق إلى بلاده الأحساء فكتب فيها أعذب الأشعار وارق الكلمات.

مؤلفاته:

- ديوان شعر.
- مجموعة رسائل أدبية وأخوانية.
- الكشكول.

استشهاده:

تشير الوثائق أنه رجع لبلاده حدود سنة ١٢٦٤هـ، وسكن محلة الفوارس موطن أسرته، حتى قتل شهيداً بعدها بسنتين أثر التعصب الطائفي، والتشدد الديني عام ١٢٦٦هـ[١].

فرثاه صديقه ورفيق دربه الشيخ أحمد بن الشيخ محمد بن مال الله الصفار الأحسائي، بقصيدة أليمة تعد من درر قصائده[٢]:

أصابنا حادث الأقدار بالخطب ... وشبَّ نار لظى الأحزان فى اللُّبِ
من حين أخبرنا الناعى المشؤم ضحى ... عن مقتل الماجد الموصوف بالأدب
العالم الفاضل الشيخ المهذب ذي الـ ... فضل الجلى علياً عالىَ الرتبِ
العابد الساجد الباكى بجنح دجى ... حال الهجود وغوث الله فى الكربِ
لهفى على ذلك المقتول حين قضى ... بين العداة بلا جرمٍ ولا سببِ
هذا بأمر من الطاغوت يحبسه ... وذاك يشتمه عدواً على غضبِ
وذاك من نصبه أخزاه خالقه ... يرجى ضلوع تقىٌ طيب أربِ
أما علمت نويصٍ أنه عطفت ... على الولاية وانحادت عن النصبِ
وجسمه بعد حسن اللحف يلحفه ... قتام ضربٍ من الأحجار والخشبِ
والرأس منفلق قد شُجَّ مفرقه ... وشيبه قد علاه ناعم التربِ
والدمُ يجري على الوجه به أثرٌ ... من السجود كجري الغيث فى الهضبِ
يا للرجال أما من رحمةٍ عطفت ... لأجل شيخٍ كبير شايب حدبِ
لله يا شيخٍ عزيزٍ فى عشيرتهِ ... يساقُ فى سوقكم بالذل والكربِ
هذا وقد غير الوجه المضيء له ... لكنه ما به عار لذي عتبِ
لأنه أبيض الوجهين من قبل الـ ... مخلوق والخالق المحجوب فى الحجبِ
وطالما فى ظلام الليل عفَّره ... حال الهجود لرب الخلق فى التربِ

[١] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، محمد الحرز، دار البيان العربي: بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م، أعلام هجر من الماضين والمعاصرين، السيد هاشم بن محمد الشخص، مؤسسة الكوثر للمعارف الإسلامية: قم، الطبعة الثالثة:١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

[٢] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٧١-٧٢.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

فيـا شـهيداً قضـى فـى الله محتسـباً فاختصـه عنـده بـالفوز والقـربِ
ويـا هـلالاً أحـال الخَسـف مطلعـه فغـاب فـى جـدثٍ عنـا ولـم يـأُبِ
وكهـف عـزٍ لأيتـام تطـوف بـه رمـاه صـرف القضـى بالهـدم والعطـبِ
ويـا أنيسـاً أتانـا ثـم أوحشـنا وبحـر علـمٍ وجـودٍ غـاب فـى التـربِ
تنعـاك كتبـك والمحـراب ينـدب إذ فيـه تقـوم تنـاجى الله فـى رهـبِ
والأهـل تبكيـك والأولاد كلهـمُ مـع الأقـارب والأحبـاب والصـحبِ
يـا قلـب فـأحزان علـى ذاك الشـهيدُ ويـا عينـىَّ جـودا بـدمعٍ هامـل سـكبِ

إلى آخر القصيدة التي تدمي القلب قبل العين حزناً وأساً على ذلك العالم الفذ من قلبٍ صادقٍ مكلوم، أحسن الحكاية والتصوير.

قراءة في شعره ونثره الوطني:

بالتأمل والمطالعة الدقيقة إلى التراث الأدبي الذي تركه لنا الشاعر الشيخ علي الرمضان نستلهم الكثير من تلك الروح الوطنية والارتباط ببلده الأحساء، والتي سنحاول هنا تبيان بعض تلك المعالم، وإن كنت أرى إن حياته الأدبية بحاجة إلى دراسة معمقة لما تستبطنه من رسائل كثيرة يدركها الخبير بالشعر والأدب، – وهذا خارج قدرتي المتواضعة–، وإنما سأحاول فتح أفق وإشارة للباحثين عله يأتي من يعيد الدراسة في حياته وشعره.

أسباب الهجرة ودوافعها:

لم يصرّح أو يلمّح الشاعر وسط ديوانه الذي سوّده خلال تنقلاته عن سبب صريح أو دافع رئيسي يقف وراء هجراته المتعددة، وإنما أشار إلى عدة أمور في مواقع متفرقة من الديوان معتبراً إياها وراء تحمله عناء السفر، ويمكن تلخيصها في التالي:

١– الخوف:

من خلال قصائده الوطنية المتناثرة شوقاً وحنيناً إلى الأحساء الذي يصل إلى الهيام والعشق الكبير، مع عدم القدرة على الرجوع يكشف عن وجود خوف لدى الشاعر وإن لم يظهر في قصائده حقيقة ذلك الخوف وسبب الهجران، وهذا أمر يفتح لنا جميع الاحتمالات والتخمينات المعقولة والتي تتناسب مع حياته وظروفه.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

لكن لا نستطيع القطع والجزم بإيٍ منها طالما هو أحب أن يحتفظ بسره لنفسه ولم يفصح به؛ وإن كان من حق الباحث أن يُبدي رأيه ويستشف من ثنايا شعره بعض التصورات والتي لا شك إن الخوف من أبرزها، وقد أشار لذلك في بعض أبياته[1]:

لـــه الله صَـــبٌ والـــهٌ جَعْجَعـــت ... بـه الـدهر بـالتفريق فـي موقـفٍ وعـرِ
يَـرومُ مـن السـلوان إحيـاء ميِّـتٍ ... ويطلـب أمـراً مسـتحيلاً مـن الصـبرِ
إلـى الله أشـكو جـور دهـرٍ صـروفهُ ... تـزر علـى قلبـي ثيابـاً مـن الجمـرِ
فأســأل مــن عــمَّ البريّــة جُــوده ... يبـدل إعسـاري مـن الوصـل باليسـرِ

٢- الحاجة المالية:

مُنيَ الشيخ علي الرمضان في بلاده بحالة من الفقر والحاجة التي أثقلت كاهله، وضيقت معيشته حتى أنه لم يستطع أن يفي بحق أهله وعياله، ويبدو أنه حزم أمره ورأى أن لا مناص من الرحيل والتغرب عن الأوطان سعياً وراء الرزق الحلال ودفع غائلة الفقر والحاجة، وساح حثيثاً في أرض الله الواسعة طلباً لذلك.

وفي أبياته شيء من الإشارة إلى مشكلة العوز وضيق ذات اليد التي عانى منا الشاعر الأمرين[2]:

يـاربِّ يـا موجـد الأشـياء مـن عـدمٍ ... ولا لغـــوب ولا لهـــو ولا نصـــبِ
أنـت الغنـى الجـواد الواحـد الأحـدِ ... الفـرد المهـيمن بـلا شـكٍ ولا ريـبِ
أنـت المسـبب لـلأرزاق تبسـطها ... لكـل عبـدٍ ضـعيفٍ مالـهُ سـببِ
أنـتَ المُعَـودُ بالأحسـانِ مقترفـاً ... لـه العقـاب علـى أفعالـهِ يجـبِ
بحرمـةِ المصـطفى الهـادي وعترتـهِ ... مـن لـم ينـل فضـلهم عجـم ولا عـربِ
أرحـم عُبيـداً مـن الأسـفارِ فـي طلـبِ ... المعـاش قـد مسَّـهُ التبـريح والوصـبِ
وأكتـب إلهـي لـه رزقـاً ببلدتـهِ ... معجـلاً واسـعاً يُمحـا بـه النَصَـبِ
رزقـاً حـلالاً تُزكيـه وتسـعدهُ ... بـه وتعلـو بداريـه لـه الرتـبِ
مـاذا عليـك إلهـي لـو فعلـت بـهِ ... هـذا وصـيرتهُ فـي بعـض مـا تهـبِ
وقـد وجـدتُ جميـع الخيـر يـا أملـى ... وغيـث جـودك منصـب ومنسـكبِ
يارب إن لـم تجـد منـى القنـوط وقـد ... جلّـت مـأثم مـا قـد كنـت أكتسـبِ
فـذاك ممـا نهيـتَ المسـرفين عـن الـ ... قنـوط يـامن بهـي سـتدفعُ العَطَـبِ

[1] الشاعر على الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ٥٢.
[2] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٥١.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

٣- طلب العلم:

أحد الأهداف دفعته للهجرة طلب العلم والدراسة الدينية، فكانت هجرته في بعض فتراتها إلى (سيرجان) للتتلمذ على يد العلامة الفقيه الشيخ عبد المحسن بن الشيخ محمد اللويمي(ت١٢٤٥هـ)، كما لا يبعد تتلمذه على ابن الشيخ اللويمي العلامة الشيخ علي بن الشيخ عبد المحسن والذي تربطه علاقة وثيقة عبر عنها في شعره، يقول الشيخ الشاعر الرمضان في رسالة شعرية بعثها إلى صديقه وابن عمه الشيخ أحمد بن علي الرمضان في الأحساء، مبيناً ما لأستاذه الشيخ اللويمي من فضل عليه في مدينة سيرجان ، وتلقيه على يديه[١]:

ولولا ملاذي بالديار التي بها ... إمامي عبد المحسن العالم الحبر
وفيها أبنهُ ذخري (علي) أخو العلا ... وطوبى لإنسان (علي) له ذخر
لأصبحت مما قد لقيت من البلا ... رميماً وشخصي في الملا ما له ذكر
هما قلدا جيدي عقود صنائعٍ ... مرادفة لا يستطاع لها حصر
هما أطعماني البرَّ شهداً وسكراً ... فزال به من كربي الضار والصبر
هما فرّجا عنّي الشدائد كلها ... بفضلهما والعسر يعقبه اليسر
فلا يرتقي شخص لشيخي وابنه ... إذا عدَّ زيدٌ في المكارم أو عمرو
فأبقاهما الرحمن للجود كعبةٌ ... تطوف بها الوفاد ما طلع البدر
وأزكى سلام مسفر النور مشرقٍ ... يخصكم مني متى ابتسم الزهر
وأسأل ذا الأفضال والجود والعطا ... سؤال عبيدٍ خاشع مسّهُ الضر
بأن يهب المطلوب من جمع شملنا ... فأكثر من قولي لك الحمد والشكر

٤- الحُبُ والوَجد:

شغف الشاعر بفتاة في فكان حبه لها وهيامه بها قد استحوذ عليه وساهم في أن يهجر الشاعر وطنه، ويفارق أحبته متحملاً في سبيل ذلك عَناء الغربةِ ومشقة السفر، فقال الشاعر معبراً عن هذا الحب الذي كان سبباً لمعاناة الشاعر وهجرته[٢]:

[١] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٥٥.
[٢] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٥٣.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

أهـــيم بـــذلك الرشـــا المفـــدى ... علـــى الحـــالين قـــربٍ وابتعـــادِ
عليـــه مـــن المـــلا وقـــع اختيـــار ... ومـــا أخطـــأ ولا كَـــذبَ انتقـــادي
لأجـــل القـــرب منـــه فدتـــهُ نفســـي ... تخيـــرتُ التباعـــد عـــن بـــلادي
وذقـــت مـــن الشـــدائد كـــل طعـــمٍ ... وجبـــتُ مـــن الفَدَافـــدِ كـــل وادي

معاناة الهجرة:

لا تخلوا حياة السفر والترحال من صعوبات ومعاناة عديدة يستشعرها من خَبرها وذاق طعم الغربةِ والتغرب، أبرزها عدم الاستقرار النفسي والجسدي، خصوصاً من كانت هجرته قهرية وليست اختيارية، لأنه يعيش ذلك الحنين والرغبة في الرجوع للوطن ويمني نفسه كل يومٍ بذلك، فلا هو بالمستقر المتقبل لبلاد هجرته فيتكيف معها ويحاول أن يشق طريقه في مختلف أبعاد الحياة الهادئة الوادعة، ولا بالراجع إلى وطنه ليستعيد حياته السابقة التي يحن ويتعطش لها.

وشاعرنا الشيخ الرمضان رغم طول مدة هجرته مع كبر سنه وتطاول مدة الهجرة؛ لم يستطع أن يتذوق طعم الراحة طالما هو في بلدٍ وقلبه يرفرفُ في بلدٍ آخر، فنتج عنها عدة أمور نستطيع أن نعبر عنها بآثار حياة التغرب وهي:

- كثرة التنقل:

التنقلات الكثيرة، وعدم الاستقرار من أهم ملامح هجرة الشيخ الشهيد علي الرمضان، وقد استشعر هذا الألم في أبياته وشعره وهو يصف حاله بعد هجرته وغربته بكثرة الأسفار، فقال[1]:

وذقـــت مـــن الشَّـــدائد كُـــلَّ طعـــمٍ ... وجبـــتُ مـــن الفَدَافـــدِ كُـــلَّ وادي
وعُمـــتُ مـــن السُّـــرَى واللَّيـــل دَاجٍ ... بسُـــفن العـــيس فـــي لُجَـــجِ السَّـــوَادِ
يبيـــتُ علـــى حَـــدَائِجها فراشـــي ... ويُصـــبحُ فـــوقَ أرْجلهَـــا مِهَـــادي
إلـــى أن أبلـــتِ الأســـفارُ جِســـمي ... وأخَفَـــاني النُّحـــولُ عـــن العبـــادِ
وصُـــرتُ كـــأنَّني سِـــرٌ خَفـــيٌ ... بأفئـــــدةِ الرَّوابـــــي والوهـــــادِ

[1] أعلام هجر، مصدر سابق:٦٠٢/٢.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

فحياة السفر والترّحَال حرمته من السهاد وراحة البال، وغدت الرواحل فراشه الذي ينام عليه، حتى نحل جسمه وضعفت قوته، وأصبح لكثرتها بعيداً عن أعين الناس لا يرونه إلا نادراً كسرٍ دفين مخفي الصحاري والروابي.

- الضعف والحاجة:

يستتبع حياة التنقل والتِسْفَار الحاجة للمأكل والملبس والمسكن والمَصرَف، وهي أمور تحتاج إلى قدرة ومكنة مادية أو إلى مصدر رزق يَدر على المهاجر المال ليتمكن من العيش والتكيف مع حياة وصعوبات الغربة، وهجرة الشيخ الشاعر الرمضان لم يَكُن مُعَد لها مسبقاً ولم تكن اختياريه، فكان في ظرفه الحاجة المالية مُلحة، لولا وجود العلامة الجليل الشيخ عبد المحسن بن الشيخ محمد اللويمي، وأبنه العالم الجليل الشيخ علي اللويمي الذي قام ببعض شؤونه وكفله مادياً وقام بتدريسه، وهو الذي تربطه بوالد الشيخ علي الرمضان الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله آل رمضان زمالة ومراسلات وصحبة قديمة، فكتب الشيخ يشيد بدعم أستاذه الشيخ اللويمي له وإيوائه:

ولولا ملاذي بالديار التي بها ... إمامي عبد المحسن العالم الحبر
وفيها أبنهُ ذخري (علي) أخو العلا ... وطوبى لإنسان (علي) له ذخر
لأصبحت مما قد لقيت من البلا ... رميماً وشخصي في الملا ما له ذكر
هما قلدا جيدي عقود صنائعٍ ... مرادفة لا يستطاع لها حصر
هما أطعماني البرَّ شهداً وسكراً ... فزال به من كربي الضار والصبر
هما فرّجا عنّي الشدائد كلها ... بفضلهما والعسر يعقبه اليسر
فلا يرتقي شخص لشيخي وابنه ... إذا عدَّ زيدٌ في المكارم أو عمرو
فأبقاهما الرحمن للجود كعبةٌ ... تطوف بها الوفاد ما طلع البدر

- عدم الراحة النفسية:

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

تشبع ديوان الشيخ الشاعر الرمضان بعشرات الأبيات التي عبر فيها عن عدم ارتياحه بالمقام في دار الهجرة والغربة، والذي انعكس بدرجة كبيرة على نفسيته وتعكر صفو حياته ومزاجه، لذا تجده دائم التشكي والتذمر من حياة الغربة، بدرجة يؤلمك معه، ويجعلك تستشعر مقدار الألم الذي يحترق في قلبه بأسلوب فني جميل[1]:

عُبيدكم المملوك يشكو لبينكم ضرام غرامٍ لا يبوح له صبرُ

ووجداً ثقيلاً ما له قط منفد ومدُّ دموعٍ ماله أبداً جزرُ

فحالة الشوق والهيام يشعل في داخله لهفة كبيرة، حتى شبه دموعه بالبحر في حالة المد الذي ليس له جزر، وهذا من روائع التشبيهات للشيخ الرمضان التي تدل على فحولته وقوة بيانه، وما يمتلكه من خيال خصب في التشبيه والتصوير.

الروح الوطنية عند الشاعر الرمضان:

وشاعرنا عاش حياته على شذا الأحساء ونسيمها ، وعلى نخيل هجر وروابيها ولكن الظروف القاهرة اضطرته لهجرها والتنقل بين مناطق بلاد فارس التي لم يستطع التكيف معها ، والعيش على ذكرى بلاده يعصره الألم كلما هاج به طيف الأحبة : أنه الشاعر الشيخ علي بن الشيخ محمد الرمضان الذي عاش في مطلع القرن الثالث عشر الهجري بين عامي (١١٨٥ – ١٢٦٥هـ) تقريباً ، إلا أن الشاعر كان يخفف من وطئة النار المستعرة في داخلة بما كان ينشده في بلاده الأحساء من قصائد تعبر عما يختلج في صدره ، وقد تجلت هذه الروح الوطنية بين ثنايا أبياته في جوانب أربعة نذكرها على التوالي :

أولاً : الدفاع المستميت :

لعل الشغف الكبير الذي كان يكنه الشاعر لبلده الأحساء في بلاد الغربة كان سبباً في عتاب بعض من هم حوله ، بل وللتجاسر بالنيل من جمال وطبيعة وطنه الأحساء، الأمر الذي لم يلقى رضى من قبل الشاعر فتصدى لمثل هذه الهجمات الشرسة بروح ملئها الدفء والثناء

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٥٤.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

على كل ما يمت لما يسمى بـ(هجر) فأنشأ قصيدة رائعة في الدفاع عن هذا الشغف الوطني لبلده الأحساء[1]:

يُكرُ بلومى فى الرواح وفى المغدا ... وأكره منه ما يعاد وما يبدا
ومالى واللُوام لا درَّ درُّهم ... قد استحسنوا باللوم سفك دمى عمدا
يريدون صرفى عن هواي سفاهة ... وهيهات يأبى ذاك من طلب الرشدا
يقولون فى أرض (العجير) قذارة ... فقلت لهم والله اشتاقه جدا
وقالوا (أبو زهمول) مرّ مذاقه ... فقلت لهم والله أحسبهُ شهدا
ألا ليت لى من مائه المر شربةً ... يصادف حرَّ القلبِ من طيبها شهدا
وياليت لى وهى السَّعادة وقفة ... على رمل (أم الذر) أُبرى بها الوَجدا
فياليت شعري هل أبيتُ برملها ... وأوقد حمضلاً يفضح المسكَ والرندا
إذا عبقت بى من نفحة دخانه ... شممت بها ما تحمل الريح من سعدا
أهيمُ بتلك السُوح وِدّا وقد درى ... أخو اللُّب من ماذا أهيمُ بها ودا
رعى الله من تلك الديار دياره ... ومدّ لهم من فيض معروفه مدّا
لقد قلدونى مِنَّةً لست قادراً ... على شُكرها حيث ارتضونى لهم عبدا
سقى الله ربعاً كان يجمع شَملنا ... وألبسه الوسمى من نسجِهِ بردا
فلله ربعاً ينبتُ الأُسد والظِبا ... ويَحمى بشوك السُمر من خدهِ وردا
لقد نلتُ فيه منتهى كل لذةٍ ... وصاحبتُ فيه طالعاً كان لى سُعْدا
ليالى وجه الدهر تحوي مقبل ... ولم يُولِنى الإعراض منه ولا الصّدّا
ليالى تأتينى الأمانى مطيعةٌ ... فأبلغُ من أوطاري الغور والنجدا
على ذلك المَغنى المنير وأهلهِ ... سَلامُ مُحبِ نَازح هالكٍ جهدا
له الدّهر بعد السِلم أضحى محارباً ... يجرُ عليه من فنون البلى جندا
رماه بمر القطع من بعدِ وصلهِ ... وأبدله من قرب أحبابه بعدا
فأمسي وقد شطت به غربة النوى ... يُصالى من الأشجان فى صدره وقدا
يبيتُ كما بات السليمُ ويَغتدي ... بقلبِ حسام البين شطره قدا
وإنى لأرجو من إلهى بفضلهِ ... شفائى بوصل قبل أن أسكن اللّحدا

فكل الصفات الذميمة التي يراها غيره في الأحساء هو يراها سجايا ينبغي أن تفخر بها الأحساء فهو يراها صافية مصفاة من كل سوء، لا يستطيع الدنس أن يقترب منها فيكفيه أنه لامس تراب الأحساء التي حرم منه الشاعر وأصبح مستعصياً عليه، فقيم الأشياء وجمالها في

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ١٤٥

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

نظر الشاعر لا تبتني على الشكل أو الطعم أو غيرها من المقاييس الجمالية الضيقة صاحبة النظرة الآنية وإنما بما تحمله من قيم معنوية في نظر المحب التي لا تتغير مهما تغيرت الظروف واختلفت الأحوال.

ثانياً: الحنين الدائم:

قد لا تخلو قصيدة من قصائده من ذلك الحنين والشوق الذي لا يبرى ، فقلبه دائم التحرق والاشتعال ، فهو متعلق بكل ما يرتبط بالأحساء أهلها نخيلها ريحها عصافيرها عيونها أنهارها كل شبر منها يذكره بها لذا يقول :

أهيم بتلك السوح وِدّا وقد درى أخو اللب من ماذا أهيم بها ودا

ويقول في قصيدة أخرى وهو يعيش الأمنيات والأحلام بلقاء أهله وأصدقائه :

فياليت شعرى هل ابيتن ليلة علىّ لطيب العيش أكيسه خصر
وهل يحتوينى والأحبة مجلس به من رحيق البن غانية بكر

ومن أجمل روائعه في الشوق بالأحساء والتغني بها ، ومنها المقطوعة التي تعبر عن مدى تعلق الشاعر ببلاده وما تحتله من مساحة في فؤاده، وقد أخذ يتغنى بأرض الصبا وهو يسترجع شريط الماضي وتلك الأيام الجميلة التي لم يبقى منها إلا الذكريات العطرة المثلجة للقلب، المصحوبة عادة بالأسى والحزن على ما فقده منها، إذ يقول :

تحملت الهوى وبه فسادى وأهملت الحجى وبه رشادى
وقادنى الغرام إليه حتى أتيت بكفه سلس القياد
وأهون ما ألاقى منه داء تصدع منه أكباد الصلاد
وبالأحساء وهى منايَ قوم بعادهم نفى عنى رقادى
لهم جفنى القريح يفيض ريا بفيض دموعه والقلب صادى
هيامى فيهم شغلى ودأبى ووجدي منهم وشربى وزادي
أحب لأجلهم خفقان قلبى وأهوى فى محبتهم سهادى
وهم حصنى المنيع وهم سنادى وهم ركنى الوثيق وهم عمادى

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

سـقى الأحسـاء باريهـا بغيـث يمـد الخصـب مـن صـوب العهـاد

فهنا يكشف الشاعر سراً من أسراره في تعلقه ببلاده إذ هي التي تضم الأهل والأحبة الذين تربطهم بالشاعر طفولة وشباب ونسب وهي أمور لا يمكن أن تمسحها السنون بجميع ما تحمل من أزمات وعقبات فكل هذا يذهب ويبقى القلب متعلقاً بمن أحب لا يغيره الزمن ولا يرهقه الوهن .

ولم يتوقف عن التوسل والتضرع إلى الله جلَّ شأنه الذي بيده أمر العباد، أن يرجعه إلى وطنه الأحساء الذي لا ينفك عنه شوقه وحنينه، فقال[1]:

فعطفـاً يـا كـريمُ علـى غريـبِ إلـى أوطانـه وإلـى حنينـه
إذا ذكـر الـدِّيار بـأرض هجـرٍ ذكـت نـارٌ بأضـلعه دفينـه
وسَـالت فـي محـاجره عليهـا دِمـاءٌ مـن مدامعـه سـخينه
فـلا زالـت رقـاب النـاس طُـرّاً بمـا توليـه مـن مـنن رهينـه

يلحظ التغني والشوق الكبير لدى الشاعر الرمضان إن معظم قصائده تنضح بالشوق والحنين إلى الأحساء ومرابعها ونواديها، والحزن والألم لديه لا يكون غالباً إلا نتيجة لهذا البعد والفراق وتذكر الأحباب.

فقد افتتح قصيدة مدح في أئمة أهل البيت عليهم السلام، بذكر ذلك الشوق[2]:

مـالى أراك بسـكرة الإغمـاء أذكـرت جيرانـاً لـدى الأحسـاء
مـا شـام طرفـك بارقـاً مـن نحـوهم إلا انثنـى كعـوارض الأنـواء
قـد كـان ثـوب الأرض أغبر قبلمـا تبكـى فصـار بصـبغة حمـراء
لجـت بـك الأدواء مـن تـذكارهم حتـى خضـت ضـناً مـن الأدواء
وبعـدُ فيـا ريحانـة القلـب إن لـى إليـك اشـتياقاً رحـت منـه مُعـذبا
لـولا نواحـك لاهتـدى لـك مـدركٍ كـلا ولـم تحسـب مـن الأحيـاء

إلى أن يقول:

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٦٣.
[2] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ١٣٣.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

أستودع الرحمن بالهفوف من ... هجر أهيل مودةً ووفاء
يا جيرة الأحساء هل من زورةٍ ... تمحو ظلام البين بالأضواء
يا جيرة الأحساء هل من زورةٍ ... أحيا بها يا جيرة الأحساء
أنا فيكم صادى الحشاشة فاسمحوا ... لى من وصلكم بعذبِ ماء
أنتم مناي من الزمان وبعدكم ... كدري وقربكم الشهى صفائى
لا شيء أحلى فى فمى من ذكركم ... إلا مديح السادة النجباء
أهل الجلال أولوا الكمال وخيرة الـ ... متعال من أرض له وسماء
آل النبى الطهر زينة يثربِ ... وجمال من قد حلَّ بالبطحاء

ثالثاً: مراسلة الأصدقاء:

من الأمور التي تخلفها الهجرة والبعد عن الأوطان، والتي تترك أثراً بالغاً في النفس، مسألة البعد عن أصدقاء الطفولة والصِّبا، الذين تجمع المرء معهم ذكريات ومواقف عديدة، وجميلة، فيمر طيفهم ويطوف بالفكر يوماً بعد يوم، فهم يمثلون صورة الوطن في القلب، وعبق الماضي الجميل، والرابطة بين المهاجر وبلاده، لذا تجده يحرص عليها أكثر وأكبر من حرصهم هم أنفسهم عليها.

فإن جفوه وصلهم، وإن أبعدوه قربهم، وإن أعرضوا عنه أتجه إليهم، فهم عنده أكبر مما يظنون، وأقرب مما يعتقدون، وشاعرنا الشهيد الشيخ علي الرمضان ممن حرص في دار هجرته على الحفاظ على رابطة الأخوة والصداقة، ولم يتقبل مسألة الهجران خاصة ممن أحبهم وجمعته بهم صداقة وثيقة ومنهم:

١- الشيخ محمد بن علي البغلي(كان حياً سنة ١٢٤٥هـ):

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

الشيخ محمد بن علي بن مليخان البغلي الأحسائي وهو من أعلام مدينة الهفوف ومن الأدباء البارزين فيها، وهو ممن جمعته بالشيخ الرمضان صحبة وتاريخ معاً؛ فقال عن هذه الصداقة والتي وجَدَ فيها فتوراً من جانب البَغلي[1]:

محمد البغلي من شاع ذكره ... بأقطار أرض الله شرقاً ومغربا
فتى عرفتُ فيه كرام أطايبِ ... فجاء برغم الضد أكرم أطيبا
له نسبٌ كالصبح أبلج مسفر ... أقام له بيت الفُخار وطنبا

وبعد أن أطنب في الثناء عليه أخذ يستعيد الذكريات، وكان جمعته به صحبة قديمة تمتد لسنوات مضت:

تخيرته بعد اختباري لحاله ... من الناس خلا فهو عندي مجتبا
وصنت له الود القديم مضاعفاً ... وحاشا لودي أن يزول ويذهبا
وعندي خيال منه في القلب حاضراً ... متى ما غدا عن لحظ عيني مغيبا
فحُبيله دِينٌ أراه ومذهبَ ... وأكرم به ديناً منيراً ومذهبا
وبعدُ فيا ريحانة القلب إن لي ... إليك اشتياقاً رحت منه مُعذبا
أثار أسيً في مهجتي وكآبةٍ ... وأنشب نباً في فؤادي ومخلبا

ويسترسل في كلام عذب جميل يفتت الصخر لرقته، ويدمي القلب بحرارته، وهو يتغنج بذلك الصديق الحبيب الذي لا يقوى على فراقه.

ثم يأخذ يصف حاله بفرق حبيبه وصديقه الشيخ البغلي، بصور شعرية وتشبيهات غاية في الجمال والروعة فيقول[2]:

وأقسم بالضّبي الربيب مهفهفاً ... لوى صدغه في الصدر حتى تعقربا
له روض حسن فوق خديه مشرقٌ ... عليه جفوني تسكب الدمع منصبا
فياليت شعري هل زماني مُسعفي ... بوصل يردُّ الأنس أخضر مُعشِبا

بعدها يأخذ في العِتاب على الهجران وقطع المراسلة ورد الجواب، بعد أن بعث إليه برسالة فلم يأتيه الجواب[3]:

وياخيرتي مالي أراك رميتني ... بهجر كأني كنت عندك مذنبا

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٥٦.
[2] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٥٧.
[3] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٥٧.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

أأرسلُ من شوقي إليك رسالةً ... وتترك أرسال الجواب تجنبا!
لقد همتُ والرحمن تعجباً ... وحق لعمر الله أن أتعجبا
أمثلك بالهجران يصبح مُبعدي ... ومثلي حريٌ أن يكون مقربا
ألسنا عقدنا عقدة الود بيننا ... على الصفو والإخلاص من زمن
ألم نتواعد بالتكاتب في النوى ... ألم نتذاكر ذاك صبحاً ومغربا
فرحت بهذا الفرض وحدي مقلداً ... وحكم التَجَاري أن أخُطَ وتَكتُبا
فجَانِب فدتك النَّفس هَجرى فإنني ... غدوتُ بهذا الهجر والصَّدِ متعبا
فأرسل كتاباً منك نَحوي يكون لي ... مبيناً عن الأحوال منك ومعربا

فهو لا يطلب إلا معاودة التواصل، وبعث الأخبار عن الأهل والأحبة التي تبعث في النفس الراحة والطمأنينة.

وأكثر ما يخشى الشاعر الرمضان أن يكون في العتب سبباً في الزعل ووجود الشقة بين الأحباب، فراح يبرر ذلك التعاب بقوله:

وإياك أن تلقى عتابى سَاخِطاً ... فإن عتابى عن ودادى تسببا
ومَنْ ودَّ إنسان أطال عِتَابه ... كما قال من قاسَ الأمور وجرَّبا
فصلني أو اقطع كيف شئت فإنني ... أراك على الحالين عندي مُحببا
وهاكم تسليمٌ يروق جمالهُ ... يخصك مني ما سرت نسمة الصبا

وبهذا يختم قصيدته بعد أن بلغ الأمر عنده منتهاه، ولم يعد الصّد أو الهجران تأثير في نفسه فأنت لا زلت أنت المحبب عندي الذي لا يكون مع هِجرانه هَجر.

٢- الشيخ أحمد بن علي الرمضان:

فالعلاقة التي تربطه بابن عمه علاقة طفولة وزمالة وصداقة وقرابة لذا كان العتب على عدم الوصل شديد، فمن خلاله يعرف أخبار الأهل والأحبة، ومن قلمه يرى حيه الذي نشأ فيه وأخبار الأحباب والخلان، لذا كتب له قصيدة في العتب تعد من روائع قصائده تصل إلى (٥١) بيت، بدأها بالتالي[١]:

سلامٌ كزهر الروض صافحه القطرُ ... يفوح له نشرٌ ويذكو له عطرُ

[١] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ٥٣- ٥٥.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

وأبهى ثناء نَوَّرَ الكونَ ضوءهُ فلا ضيرَ لو لم تطلعُ الشمسُ والبدرُ
على سيدي مولاي كنزي ذخيرتي سنادي عمادي ملجئي إن جفا الدهرُ
حليفُ العلا والمجد والفضل أحمد سليلَ عليٌّ من له العز والفخرُ
هو البرُ بالقربى على كل حالةٍ وما قصدهُ منهم ثناءٌ ولا شكرُ

ثم يبدأ الشاعر في بيان شوقه وحنينه إلى أهله ووطنه وما يشعر به من ألم الفراق والبعد عنهم، في صور شعرية رائعة فيقول:

عُبيدكم المملوك يشكو لبينكمُ ضرامٌ غرامٌ لا يبوح له صبرُ
ووجداً ثقيلاً ما له قط منفدُ ومدُ دموع ماله أبداً جزرُ
أحنُ كما يعقوبٌ إذ بانَ يوسفُ وأبكي كما الخنسا غداة ثوى صَخرُ
ولجةُ ليلٌ موجها متلاطمٌ عليَّ بحزنٍ منه ينصدع الصَّخرُ
أبيت بها في مضجعي متقلقلاً كأن فراشي من تطاولها الجمرُ
أراقب فيها الفجر يبدو بنورهِ عليَّ وما يبدو لليل النوى فجرُ
فساعد الله الغريب فكسرهُ بدون اجتماع الشَّمل ليس له جبرُ
لعمرك إن الاغتراب هو الردى فما لفتى يحيا به أبداً عذرُ

ثم أخذ يذم التغرب والبعد عن الأوطان إلى أن ينتهي بالدعاء بلم الشمل والاجتماع بالأهل والأحباب فيقول:

وأسأل ذا الأفضال والجود والعطا سؤال عبيدٍ خاشعٍ مسّهُ الضرُ
بأن يهب المطلوب من جمع شملنا فأكثر من قولي لك الحمدُ والشكرُ

رابعاً: وصف المعالم الجغرافية:

إن من علائم الحب للوطن حفظ المعالم الجغرافية وما تحويه من أنهر، وعيون، وهضاب، وتلاع، وحصون، أنها الصورة التي لا تغيب مهما طالت السنون وفرق بين الحبيبين الدهر الخؤون، فيبحث عن أي زائر لبلاده كي يحمله تلك اللوعة وينقله مشاعره إلى الأحبة وهذا ما حدث للشاعر عندما وجدا من يُحمّله فؤاده فأخذ يصف الأحساء وكأنها ماثلة أمامه،

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

وأنه يترقى الشاعر في أحاسيسه ومشاعره فيحاول أن يتجسد معهم ويعيش أجوائهم وحركاتهم بكل دقة، وهو الخبير بمعالمها.

وهذا ما فعله الشاعر في قصيدته«يا ذاهباً إلى هجر»، عندما وصف للمسافرين عن طريق ميناء العقير المؤدي إلى منزل أهله وأحبته، كي يبلغوا إليهم سلامه، ولم ينسَ أن يخبرهم بحاله وعنائه وهو بعيد لا يقوى على الوصل والاجتماع بهم[1]:

أهيل النياق الهوج يزجو بها إلى ... دياري من هجرٍ وشوقي إلى هجرِ
إليكم لهذا الواله الصب حاجةً ... فإن تنجحوها تربحوا أعظم الأجرِ
خذوا نظرةً مني إذا ما نزلتمُ ... على النهر صافي الماء من أيمن (الجفرِ)[2]
فلاقوا بها تلك التلاع لعلني ... أبل بها حراً تضمنه صدري
ومهما مررتم بـ(الفضول)[3] فعرجوا ... على (أم فراج)[4] لدى الدوح والزهرِ
وإن كظكم حر الظماء فدونكم ... (غصيبة)[5] حيث العذب فوق الحصى يجري
وفي ضمن هذا فاذكروني فإنني ... لمنتعشٌ منكم على النأي بالذكرِ
وإن بلغت أيدي المطيّ بكم إلى ... ربوع من (الهفوف) نفاحة النشرِ
فخروا على حر الوجوه لربكم ... سجوداً وأدّوا ما عليكم من الشكرِ
ومهما جلا الهفوف من ربعه لكم ... من الكون أبراجاً لأنجمه الزهرِ
فحنّوا ابتهاجاً واستهيموا بمرةٍ ... فليس لكم من دون ذلك من عذرِ
وسيروا على اسم الله حتى يحوطكم ... من (الكوت)[6] سورِ شامخ العز والنصرِ
وميلوا إذاً نحو الجنوب لتبلغوا ... عراصاً ثراها منبتُ المجدِ والفخرِ
فشموا عني فالثموا وتنشقوا ... لها تربةً أزكى لعمري من العطرِ
مرابعُ أحبابي وموطن معشري ... بنى (رمضان) صالحي السر والجهرِ
ومن جوهر التسليم عني فانظموا ... عقوداً لهم منهم تنل أرفع القدرِ

---

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ١٤٧.

[2] قرية الجفر: تبعد عن الهفوف نحو خمسة عشر ميلاً. تقع قرية الجفر وسط القرى الشرقية من محافظة الأحساء، حيث تتفرع منها الطرق المؤدية للمدن والقرى الشمالية والشرقية والجنوبية، يحدهاشمالاً المركز والساباط، ويحدها شرقاً الجشة، ويحدها جنوباً الطرف، ويحدها غرباً العقار والمزاوي والفضول والمنيزلة.

[3] هي إحدى قرى الأحساء، وتقع في الجزء الجنوبي الشرقي لمدينة الهفوف، وتبعد عنها حوالي ١٠ كيلومترات، وتعتبر من أقدم قرى الأحساء تاريخيا. ويعود نسب الفضول إلى الفضل بن ربيعة، وهو جد آل فضل من قبيلة بني لام الطائيين، ولعل هذه القرية منسوبة إلى أحد الأمراء العيونيين، الذي مدحه ابن المقرب.

[4] يظهر أنها أحد المزارع المعروفة على مقربة من قرية الفضول في الطريق إلى مدينة الهفوف تتمتع بخضرتها وزهورها، تمتع عين من يراها.

[5] عين غصيبة: وقد ورد ذكرها في الوثائق بـ(نهر غصيبة)، لعذوبة مائها وشدة جريانها، تعد من عيون الأحساء القديمة، ومياهها متجهة إلى قرية الفضول الصخرية ذات الأرض الصخرية، فكانت مياهها عذبة صافية زلالا، كما أنها كانت تسقي مزارع بني نحو، وهي تقع على مجرى واحد لعين العمارة، وعين التعاضيد، ذكرها لريمر، وقال: قصيبة يقع إلى الشمال مباشرة من نبع لويمي. معلومات زودنا بها الأستاذ الباحث حسين جواد الرمضان، والأستاذ الباحث عبد الله علي الرستم.

[6] الكوت: هو حي من أقدم أحياء الهفوف بالأحساء، ويتميز ببقاء أغلب بنيانها على الطراز القديم من الطين والسعف. يقع الكوت وسط الهفوف يحده من الشمال السيفة، ومن الجنوب الرفعة، ومن الغرب النعاثل، ومن الشرق الرفعة. ويعود تاريخها إلى عهد الأتراك.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

وقولـــوا إذا أدّيـــتم واجـــب الثنـــا ... علـيهم بمـــا يربـــوا علـــى العـــدِّ والحصـــرِ
تركنـا لكـم حيـث التغـرب طـائراً ... ينـــوح علـــى الأفـــراخ والإلـــف والـــوكرِ
يجـــنُّ إذا جـــنَّ الظـــلامُ وإن أتـــى ... نهـــاراً أتـــاه الويـــلُ مـــن مطلـــعُ الفجـــرِ
إذا شـامَ برقـاً لاح مـن نحـو حـيّكم ... همـــت ســـحبَ عينيـــه مـــن الوجـــدِ بـــالقطرِ
وإن شمَّ من ريح الصبا طيب نشركم ... ألـــح عليـــه الشـــوق بـــالطيِّ والنشـــرِ
لـــه الله صـــبِ والـــهٍ جعجعـــت بـــه ... يـــد الـــدهر بـــالتفريق فـــي موقـــفٍ وعـــرِ
يـــرومُ مـــن الســـلوان إحيـــاء ميـــتٍ ... ويطلـــبُ أمـــراً مســـتحيلاً مـــن الصـــبرِ
إلـى الله أشـكو جـور دهـرٍ صـروفهُ ... تـــزر علـــى قلبـــى ثيابـــاً مـــن الجمـــرِ
فأســـأل مـــن عـــمَّ البريـــةَ جُـــودهُ ... يبـــدلُ إعســـاري مـــن الوصـــل باليســـرِ

فمن القصيدة نستطيع أن نستشف المعالم الجغرافية والتاريخية للأحساء، التي انـدثرت ولم يبق منها أثر يذكر، والتي من بينهـا النهـر الـذي ذكـره الشـاعر قـرب (الجفـر) فـي الجهـة اليمنى منها، وكذلك أبراج (الكوت) العالية.

فمظاهر المدن قضت على جميع تلك المعالم، وأخيراً، سور الكوت أحد أبرز المعالم الأثرية التي كانت يوماً من الأيام تحيط بمركز الأحساء (الكوت) فقد هُدَّ بسبب التوسعة في المنطقة.

والمتأمل للأبيات الآنفة بعين الدراسة والتمعن يلحظ الشغف العارم عند الشاعر ببلـده الذي بلغ درجة الهيام، فقد أحب هواءهـا، وأرضـها، وتِلاعهـا، وعيونهـا، وحصـونها، وأهلهـا، وكل ماحملته أرضها.

ولو أمعنَّا أكثر في الأبيات نستشـف أيضـا أن هنـاك مـايمنع الشـاعر مـن الرجـوع إلـى وطنه، لم يُشر إليه تصريحاً سوى أن يصف نفسه بـ(الصب) الـذي جعجع بـه الـدهر لموقـف شبهه بالطريق الوعر، الذي مـا كـان ينبغـي أن يسـلكه، حتـى غـدا طلـب الرجـوع مـن الأمـور المستحيلة التي لا تتحقق، ولكن الشاعر لا ينسى تعلقه وأهله بالله مفرج الكربات فـي أن يبـث إليه شكواه ويسأله إبدال عسره يسراً.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

وربما هذا هو السر وراء الشوق الشديد الذي يكنه الشاعر لوطنه. والذي يؤيد هذه الفكرة رفضه المستمر للغربة والتغرب، ودعوته إلى الرجوع للوطن.

وفي كل ذلك نلحظ بما لا يخفى أمور:

- عنصر التدرج لدى الشاعر وهو أمر نفسي حيث تتهيأ النفس للقاء أمر عظيم وهو فن من فنون التفخيم .

- إدراك الشاعر بحال المسافرين وما هي الأمور التي يلحظها المسافر وتلفت نظره أول قدومه إلى بلد جديد، من المعالم السياحية والماء لبعث النشاط والحيوية في النفس والدواب .

- الاندماج الكبير الذي يحمله الشاعر مع المسافرين فيستشعر نفسه واحداً منهم يرى ما يرون، ويذوق ما يذوقون، إذ هو في الواقع لا يصف لهم وإنما يصف لروحه التي تخفق بينهم في خطوة من خطواتهم وتستشعر جميع ما يقومون به .

خامساً: ذم الاغتراب:

بالرغم مما في الغربة من حسنات ذكرها الشعراء فإنها لا تخلوا من مساوئ لا يشعر بها إلا من عاش الغربة وشعر بوحشتها ، والشاعر الرمضان ممن خبر الغربة وعرف الكثير عنها لذا ينتهي إلى نتيجة واحدة لا يحيد عنها هي :

لعمرك إن الاغتراب هو الردى فما لفتى يحيا به أبداً عذر

فهو يصنع لنا معادلة رياضية تحمل خبرته ونظرته وهو الذي عاش الغربة سنين طويلة فيقول :

الغربة = الردى (الموت)

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

وأما جميع حسنات السفر فإن الشاعر لايراها مبرر كافياً للاغتراب ، وليس هناك استثناء من القاعدة إلا حالة العذر المقبول عرفاً ككسب الرزق أو الخوف من شيء ما وحال الشاعر من القسم الثاني .

الخارطة الجغرافية لرحلة الرمضان من شعره ونثره:

هناك محطات جغرافية عديدة توقف خلالها الشاعر الرمضان من خلال شعره ونثره عكس من خلالها حياته ووضعه وما جرت في حياته من أحداث في هذا التنقلات سواء سلباً أو يجاباً، يعرفنا من خلالها على عالمه الخاص، وقد تضمنت هذه الحياة والرحلات المشاعر والأحاسيس المختلفة، والشيء الذي يؤسف له أنه لم يقرر تاريخ لما كتب من شعر لذا قد لا يكون الترتيب دقيقاً للمعالم الجغرافية.

وقد جاب مناطق إيران يتنقل من بلدة إلى أخرى، وقد أرهقته جبالها لشدة وعورتها وصعوبة العبور من خلالها، فقال فيها وصفاً جميلاً كناية عن تنقلاته الكثيرة وما كابده خلالها من مشقة كبيرة، وعدها أقسى وأكثر وعورة من ركوب البحر[1]:

ما البحر عندي وإن جلّت رزيته ... مساوياً لصحاري العجم في الخطرِ
البحرُ قد لا يرى فيه أمرؤٌ ضرراً ... وما نجا أحدٌ منها بلا ضررِ
بها وعور تهاب الجنُ مسكلها ... فكيف يسلكها خلقٌ من البشرِ
لله كم شاهقٌ منها شهقت به ... وقد رأيت المنايا الحمر بالبصرِ
وغائرٌ ضلّت أهوي منه في ظلمٍ ... ما شاهدتُ لضياء الشمس من أثرِ
ورب بطحاء وهي السهلُ عندهمُ ... بها رؤوس شياطين من الحجرِ
لها إذا ما عراها السيل جعجعةٌ ... ترمي الفؤاد بسهمِ الخوف والذعرِ
آلت فبرّت على أن يمرَّ بها ... شخصٌ فيخرج منها غير منكسرى
فكم منعِمٍ عيش ما رأى غِيراً ... أرته بالكسر إن الدهر ذو غيرِ
فراح ينشدُ والأوجاع ترمضه ... يا دهر قد شيب منك الدهر الصفو بالكدرِ

الأحساء:

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٩٢.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

ضمن رسالة للشيخ الرمضان حدود سنة ١٢١٦هـ، إلى أستاذه السيد حسين بن السيد عيسى التويلي البحراني، يتحدث فيها عن وباء الطاعون الذي نخر في الأحساء بعد انتشاره في صفوف الحجاج وقد وصل المرض إلى البلاد عن طريق الحجاج في تلك السنة، فكتب الأديب والشاعر علي الرمضان عن حال الأحساء حينها:

«وقد طرق الأحساء وباء خرَّبَ دورها، وعمَّر قبورها، وأباح مصونها، وأذلَّ حصونها، دخل في الأبدان وولج وطعن في الصدور، فخلج وأنفذ في الأكباد حرابه، وأظهر في الأجساد خرابه، قد أقام في كل عرصة واعية، وأثار في بقعة ناعية، وأنشَأ في كل نادٍ ضجة، وفي كل دار عَجة، فكم من بَدرٍ خسفه، وغُصنٍ قَصَفه، ورفيع أحطه، ومحا من صفحة الوجود خطه».

ثم يصف أثر الحادث في نفسه من هول ما شاهد ورأى:

«وأيم الله لقد أرعب أخاك هذا الحادث ،وأدهشه ،وأرعده ،وأرعشه، حتى كاد يلقى الأجل من شدة الخوف والوجل، كيف لا وهو بطش الملك الجبار، وأخذ الواحد القهار، ولعمري إن من أخطئه سهام هذه الرزية لحقيق بأن يقصر أمله، ويصلح عمله، ويتوب من ذنبه، ويمهد في القبر مضجع جنبيه..»[١].

ويظهر إن الشيخ الشهيد الرمضان، من هول ما فعله المرض من بطش في البلاد والعباد رحل من الأحساء وغادرها.

سعيد آباد:

قرية تابعة لمدينة سيرجان وهي من المدن التابعة لمحافظة كرمان، تقع على بعد ١٨٠ كيلو متراً عن كرمان، على رأس طريق بندر عباس، فارس، وطريق كرمان المؤدي إلى طهران. تنقسم المدينة إلى ناحيتين: الناحية المركزية وناحية باريز. وفيها أربعة مدن هي: سيرجان، وزيدآباد، ونجف شهر، وباريز.

وهي بلدة هاجر إليها الشيخ علي الرمضان؛ حدود سنة ١٢١٥هـ بعد استقرار الشيخ عبد المحسن اللويمي(ت١٢٤٥هـ)، وباقي أفراد أسرته، وبدء نشاطه العلمي والتدريسي،

[١] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٦٢.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

فأخذها ملجأ له لحقبة من الزمن تتلمذ خلالها على الشيخ اللويمي وصارت بينه وبين ابنه الشيخ علي علاقة وثيقة.

وفي هذه الحقبة السيرجانية نَعُمَ الشيخ الرمضان بنوع من الارتياح والاستقرار النفسي مرجعه أمرين[1]:

أولاً: وجود عدد من أبناء وطنه الأحساء بقربة مما يخفف وطأة وحشة الغربة لديه، فالشيخ اللويمي في هجرته صحبه عدد غير قليل من أبناء الأحساء سواء من محبيه أو تلامذته ومرافقيه من رجال العلم.

ثانياً: حصل على الدعم المادي الذي يساعده على تسيير أمور حياته المعاشية.

إضافة إلى استقلال وقته في طلب العلم والدراسة الدينية على يد عالم كبير كالشيخ عبد المحسن اللويمي، لذا تعد هذه الفترة من أجل وأسعد المراحل التي عاشها الشيخ علي الرمضان.

ولولا ملاذي بالديار التي بها ... إمامي عبد المحسن العالم الحبر
وفيها أبنهُ ذخري (علي) أخو العلا ... وطوبى لإنسان (علي) له ذخر
لأصبحت مما قد لقيت من البلا ... رميماً وشخصي في الملا ما له ذكر
هما قلدا جيدي عقود صنائعٍ ... مرادفة لا يستطاع لها حصر

و(الديار) هنا هي بلدة (سعيد آباد)من قرى سيرجان التي سكنها الشيخ عبد المحسن اللويمي واتخذها مقراً له ولأسرته.

أحمدي:

قرية أحمدي (بوشكان) هي قرية تقع في إيران في قسم بوشكان الريفي، وتتبع مدينة بوشهر.

في نطاق تنقلات ورحلات أنه سافر من الأحساء متجهاً إلى بلاد فارس منطلقاً من ميناء العقير ومنه إلى ميناء بوشهر، مروراً على قرية أحمدي، وهو في طريقه إلى مقاطعة

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٥٥.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

(دشتستان)، وهي إحدى مقاطعات محافظة (بوشهر) الإيرانية، مركز المقاطعة هو مدينة (برازجان).

فبعد أن وصل إلى ميناء (بوشهر) على الساحل الإيراني، ويبدو أنه لم يطل المكوث فيه، فغادره إلى قرية (الأحمدي) التي هي اليوم جزء من بوشهر ناحية الغرب، فعجل بالرحيل منها متجهاً إلى منطقة(دشتبان)، بعد أن لم يطب له المقام لشدّة حرها.

ولكن الشاعر يشير أن وصوله إلى ميناء الأحمدي في فصل الصيف وكان الحرُّ شديد والرياح كأنها ممزوجة ومعجونة بالجحيم لشدة حرارتها فقال هاجياً لها[1]:

بأحمـــــــدى ريـــــــاح	ممزوجـــــــة بـــــــالجحيم
ومشـــــــربٌ بئـــــــت منـــــــهُ	بعلقـــــــمٍ وحمـــــــيم
جلســـــــتُ منـــــــه بضـــــــل	أودى بجســـــــمى السّـــــــقيم
قـــــــد دكَ طـــــــور اصطـــــــ	ـــــــباري فيـــــــه لخطـــــــب جســـــــيم
وقـــــــد صُـــــــعقت مِـــــــراراً	منـــــــه بقلـــــــبِ كَلَـــــــيم

قرية سَلْمَاْ بَاْد:

قرية في جزيرة أوال؛ تحدها من الشرق توبلي ومدينة عيسى، ومن الغرب برية متصلة بقبور سار وبساتين الجنبية، ومن الشمال قريتي بُوقُوّة والسهلة الشمالية. وهي قرية الشيخ يحيى بن حسين بن عشيرة السلمابادي(من أعلام القرن العاشر الهجري)[2].

هاجر إليها الشيخ محمد بن عبد الله آل رمضان والد الشيخ علي، واتخذها موطناً له بعد أحداث سنة ١٢١٠هـ، ومكث بها إلى حين وفاته سنة ١٢٤٠هـ.

في نهاية سنة ١٢٣٩هـ، وبداية سنة ١٢٤٠هـ أخذت صحت الشيخ محمد في التدهور، وذوت عافيته، فبعث المحيطين به إلى ابنه الشيخ علي بالوضع الصحي لوالده، فما كان منه إلا أن هب مسرعاً ميمماً نحو البحرين قرية سَلْمَاْ بَاْد ليكون قريباً من الوالد الحنون،

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٦٣.
[2] تاريخ التشيع لأهل البيت في أقليم البحرين، عبد الخالق بن عبد الجليل الجنبي، دار المحجة البيضاء، الطبعة الثانية: ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م:١٦٦.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

إلى أن وافاه الأجل، وقد تأثر لفقده جميع من يحيط به وشيع تشييعاً مهيباً يليق بشأنه، فكتب الشيخ علي الرمضان عن تلك المرحلة ووقائعها نثراً فقال[1]:

« والحمد لله الذي خط الموت على رقاب عباده خط القلادة على جيد الفتاة إلى أن يقول : أما بعد، فان أخاك قد أصيب بفقد الشيبة الطاهرة، والنعمة الظاهرة، والدي الأسعد وسيدي الأمجد، فأصبحت بفقده مجذوذ الأصل، مقطوع الوصل، مكسور الصلب موتور القلب، وقد صدر عليه ما صدر من غير أن يتأثر من المرض، أو نسمع منه قبل وفاته شكاية، غير إنا أنكرنا منه عند ذلك بعض التغير في ذاته، وبعض الاختلال في صفاته، فاستخبرنا حاله بالخطاب فأعياه ردَّ الجواب، فناديته يا أبتِ، أنا أبنك الذي أنت به رؤوف، وهذه نساؤك التي أنت عليها عطوف، كلمنا قبل أن تنقدَّ منا الأكباد وتنهدَّ منَّا الأجساد، هذا وهو بنفسه مشغول ولسان حاله يقول :

خذ في البكا إن الخليط مقوض ... فمصرع بفراقهم ومعرضُ
وأذِب فؤادك فالنصير على النوى ... دمعاً يفيض ومهجة تتفضفضُ

فاستصرخنا له أهل القرية والهين، فأصرخونا موجفين حتى إذا رأوه جعلوا يرجمون في حاله الظنون ويقولون من الطب ما لا يعلمون فعالجوه على جهل بدائه، وعدم علم بدوائه فلم يوجب ذلك له نفعاً، ولا لدائه دفعاً على أن الحال كما نطقت به الأمثال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمةٍ لا تنفعُ[2]

فلم يكن بأسرع من أن دعاه ربه إلى جواره ليريحه من الدهر وأكداره، فأجاب غريباً سعيداً شهيداً.

فانقلبت عند ذلك القرية بأهلها على فقد إمامها، واضطربت بنسائها ورجالها، وولولوا وأفعموا البقاع ضجيجاً وعجيجاً وأعوالا، فلا ترى رجلاً إلاَّ به ذُهل، ولا تلقى إمرأة إلاَّ وبه ثكل، ولا تجد صبيةً ولا صبياً إلاَّ وقد صدر من هذا الكرب ونهل..».

ومن خلال كلامه وصف حال الناس وأنهم كل واحد يدعي أنه طبيب يدور بطبه، وكيف أسهم مثل هذا الجهل في موت الكثير من الناس في تلك العصور، كما تحدث عن

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٦٤ – ٦٥.
[2] من قصيدة أبو ذؤيب الهذلي وهو من الشعراء المخضرمين، من قصيدتها التي أولها: أمن المنون وريبها تتوجع.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

الأثر الذي خلفه وفاة والده في قرية سلما باد، وهذا يعد من التاريخ الاجتماعي والوثائق المهمة لدراسة المجتمع خلال تلك العصور.

كرمان شاه:

وهي مدينة تبعد عن العاصمة طهران حوالي ٥٢٥ كم باتجاه الغرب؛ وهي غرب بلاد فارس، يحدها من جهة الشمال محافظة كردستان ومن جهة الجنوب محافظة إيلام ولرستان ومن جهة الشرق محافظة همدان ومن جهة الغرب العراق، تضم محافظة كرمانشاه أربع عشرة بلدة.

بعد أن وفاة والده الشيخ محمد آل رمضان، سنة ١٢٤٠هـ، قرر الشيخ علي العودة إلى بلاد فارس واتجه إلى مدينة (كرمانشاه)، والتي يقطنها حينها الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي وباقي أفراد أسرته كالشيخ علي نقي، والشيخ عبد الله، وغيرهم، إضافة إلى عدد من الأحسائيين المنتمين والمحبين للشيخ الأحسائي، إلا أن الشيخ الرمضان لم يطب له المقام فيها فهجاها بكلام لاذع جاء فيه[١]:

أخـى إذا مـا رمـت للأنـس منـزلا ... فـدونك كرمانـاً فمنزلهـا غـنم
بـلاد بهـا للشـلغم الفـظ منـزل ... يجـاوره فيـه (الجغنـدر) والكلـم
يسـرّك فـى أرجائهـا كـل غـدوة ... صرير لفرك الكشك يسمعه الصم
رويدك لا تطلب سوى الكشك مأدماً ... فمـا يلتقـى فيهـا سـواه أدام
نعـم فلقـد يلقـى بصـندوق خانهـا ... فنيـراً ولكـن دون تحصـيله النجم

يزد:

[١] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٦٦.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

يزد مدينة إيرانية تقع وسط البلاد عاصمة محافظة يزد قرب صحراء لوط تجاور أربع محافظات هي أصفهان وكرمان وفارس وخرسان، حيث تعتبر هذه المدينة من المدن المهمة من حيث التراث الثقافي العريق، فيها من المعالم الإسلامية مسجد الجامع الكبير وجامع السيد ركن الدين، وتعد من المناطق العلمية، بعد قيام الدولة الصفوية جعلوا من يزد عاصمتهم الثانية بعد همدان، وقد أنجبت عشرات العلماء الأفذاذ .

وقد انتقل إليها الشيخ الرمضان فطاب له العيش بين أهلها، لما وجد منهم من حفاوة واستقبال حسن، وسخاء وكرم، فكانت إقامته فيها ليست بالقصيرة ربما امتدت لعدة سنوات حدود سنة ١٢٤٥هـ وفيها حضر على بعض أعلامها منهم:

- الميرزا السيد سليمان الحسيني الطباطبائي النائيني اليزدي توفي سنة ١٢٥٠هـ ونيف، عالمٌ ورع فاضل من أجلاء العلماء قرأ على ملا إسماعيل العقدائي والشيخ جعفر الجناجي وجلالة شانه أظهر من أن تبين وله في إقامة عزاء سيد الشهداء حالات عجيبة[١].

وقد أقام لفترة من الزمن في يزد استفاد الناس من علومه، منهم الشيخ علي الرمضان ممن لزم درسه واستفاد منه، فعندما أراد الرحيل من يزد، كان ذلك صدمة للناس من حوله فقال الشيخ الرمضان في ودعه قصيدة أشار فيها لجلالة قدرة وغزارة علومه، منها[٢]:

يـا راحـلاً وقلـوب النـاس ماسـكةٌ ... منـه ولـم يجـدها نفعـاً بأذيـالِ
تـودُّ لـو بـذلت فـى تـرك رحلتـه ... نفـائس الـدهر مـن ولـدٍ ومـن مـالِ
خلفـتَ بعـدكَ أكبـاداً وكنـت لهـا ... ريّـاً عطاشـاً لصـافٍ منـك سلسـالِ
حنـت إليـك حنـين النيـب والهـةً ... مسـاجد كنـت فيهـا القـائم التـالى
وكـل مدرسـةٍ أظهـرت رونقهـا ... بفـيض علـم علـى الطـلاب سـيالِ
تحيـى بـه مـنهم أمـوات أفئـدةٍ ... لـولاك لـم يُحْيَـى مـن أمواتهـا بـالى
وذى المسـائل أمسـت مـن تحيرهـا ... بغيهـب لـم تصـب حـلاً لإشـكالِ
يفـديك يـا نعمـة الـرحمن كـل فتـى ... لـم يغـن عنـك مـدا الأيـام فـى حـالِ
صـفى لـك النـاس وداً بعـدما علمـوا ... أن ليس مثلك فى الماضى ولا التـالى

[١] أعيان الشيعة، السيد محسن الأمين، دار التعارف، الطبعة الأولى:٣٠١/٧.
[٢] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ١١٦.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

فـــلا برحـــت وعـــين الله نـــاظرةً إليـــك بـــاللطف ذا عـــز وإقبـــالِ

جعل فراقهم عليه صعباً بعد أن أقام بين ظهرانيهم حقبة من الزمن، فقال فيها وسكانها قصيدة يثني عليهم وحسن سلوكهم، منها[1]:

يـا أهـل يـزدٍ وفـى قلبـى لبيـنُكمُ داء لـــى الله مـــاذا منـــهُ احتمـــلُ
رحلتُ عنكم وود القلب لـو رَحلتُ روحـى وفارقتهـا مـن قبـل أرتحـلُ
بِنـتم فـلا بَعـدكم قلـبٌ تعـاوده مـن الفـراق جـروح لـيس تنـدملُ

- السيد صدر الدين محمد بن صالح بن محمد الموسوي العاملي(١١٩٣- ١٢٦٤ هـ)، وهو من تلاميذ: السيد محسن بن حسن الأعرجي الكاظمي، وأسد اللّه بن إسماعيل التستري الكاظمي، والسيد علي بن محمد علي الطباطبائي الحائري صاحب الرياض، والسيد محمد مهدي الشهرستاني الحائري، والسيد محمد مهدي بحر العلوم النجفي، والسيد محمد جواد بن محمد العاملي النجفي، وجعفر بن خضر النجفي صاحب «كشف الغطاء».

من أجلاء العلماء هاجر من العراق إلى إيران، فانتشر صيته في الآفاق لعلمه وفضله، فكان من رحلته زيارة غريب طوس الإمام الرضاعليه السلام، وفي طريق العودة دخل مدينة يزد فاجتمع عليه أهلها وسألوه الإقامة عندهم، لما وجدوه فيه من علم، فأقام مدة قليلة وتزوج فيها، ثم رحل إلى أصفهان وكانت يومئذ دار العلم ومحط رحال أهل الفضل، فأقام بها.

وفي مرحلة مكوثه في يزد التقى به الشيخ علي الرمضان واستفاد منه ودرس على يديه، على علومه وكانت بينهم زيارات متبادله، فكان منها أن زار الشيخ الرمضان فأنشأ في مدحه:

لـــو أن أحـــداق المشـــوق لقـــادمٍ بســطت مــن الإجـلال والإعظـامِ
لمشـــى علـــى أحـــداقنا بنعالـــه صـــدر الشـــريعة غـــرة الإســـلامِ

وقال في مدحه أيضاً[1]:

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٦٦.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

يـــا نيـــراً أقصـــى منـــاى طلوعـــه مـن بعـدِ مـا اتخـذ المَغيـب سـتارا
لـــو لـــم أرد عينـــى لرؤيـــة ســـيدي لجعلتهـــا عنـــد القـــدومِ نثـــارا

ومن هذا ندرك إن فترة الإقامة في يزد طالت عدة سنوات استفاد منها الشيخ الرمضان علمياً بالتلقي على بعض أساطين عصره، وذلك حدود سنة ١٢٤٥هـ

إلى دشتستان مرة أخرى:

ومن يزد اتجه الشيخ الأحسائي إلى بلدة(دشتستان)، ويظهر من تكرار رحلاته إليها أنه يطيب له المقام والمكوث بها وأنه كوَّن علاقات وصحبة مع العديد من أهل سكانها، لذا سكنها فترة ليست باليسيرة.

العودة إلى سعيد آباد:

ويظهر أنه رجع إليها خلال بدايات العقد الخامس من القرن الثالث عشر الهجري، وفيها لزم درس أستاذه الشيخ عبد المحسن اللويمي، وعاش تحت ظله يرتع بكرمه وسخائه وينهل من علومه ودروسه.

ليغادرها قافلاً إلى بلاده الأحساء بعد طول فراق، وشديد اشتياق وذلك سنة ١٢٤٣هـ

إلى الأحساء سنة ١٢٤٣هـ:

وفي الأحساء جرت له حوادث جمة منها أن رجلا زيدياً صنَّفَ رسالة في الردِّ على الإمامية ونقد معتقداتهم، وهي(شمس الرشاد لهداية العباد) ليحيى بن عبد الله بن زيد، وبعث

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:١١٧.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

بها إلى الأقطار الشيعية تشهيراً وقدحاً بالمذهب الإمامي، وقد وصلت إلى الأحساء نسخة من هذا الكتاب، فتصدى للرد عليه العلامة والفقيه الكبير الشيخ محمد بن عبد علي بن آل عبد الجبار القطيفي(ت١٢٥٣هـ)، في رسالة أسماها(الرد على شمس الرشاد لهداية العباد).

أولها:«الحمدُ لله موضّح الطريق ومسهّله عن المضيق، بمحكم البراهين والهدى المستبين، على لسان الصادقِ الأمين، وآلهِ الغر الميامين، وقدوة الخافقين، رؤساء الدنيا والدين».

آخرها:«تأويل كثير من الآيات الظاهرة للكل بظهور الإمام المستور محمد بن الحسن العسكري هذا ما اقتضاء الوقت على تشتت البال وتوارد المحن والبلبال، والاستعجال وإن زالت الموانع بسطنا الكلام معه نقضاً... ما أكثر من هذا بكثير وفيما حصل كفاية للمسترشد المنصف وصلى الله على محمد وآله المعصومين المطهرين وأتباعهم من شيعتهم والموالين، وكتب خادم العلماء العاملين محمد بن عبد علي بن محمد آل عبد الجبار الإمامي نسباً ومذهباً، والبحراني أصلاً والخطي مولداً»[1].

وكان حينها في الأحساء وقد طلب من الشيخ الشهيد علي الرمضان(باعتباره من كبار أدباء البلاد) نظم أبيات تناسب الرد وتدحض قول الزيدي، كي تكون ديباجة للكتاب فقام بنظم قصيدة في غاية الروعة، نذكر هنا شواهد من أبياتها[2]:

لـك الحمـد يـامن بالهدايـة خصَّـنا ... وأســعدنا دون البريــة بالرشــد
أرانـا طريـق الحـق يُشـرق مسـفراً ... وقال اسلكوا فيه فدمنا على المقصدِ
وقائــدنا نجــم الهدايــة حيــدر ... وأبنـاؤه الغُـرّ الكـرام ذوو المجـدِ
هـمُ الحبـلُ مـا بـين العبـاد وربهـم ... وذلـك طـول الـدهر متصـل المـدِّ
طهارتهم فى الذكر لـم يستطع لهـا ... معــاديهم والحمــد لله مــن ردِّ
فطـاعتهم فـرضٌ وتقـديمهم هـدى ... وحــبهم مــنج وبغضــهم مُــردي
وبيّنــه الــرحمن فــى(إنمــا)وفــى ... (أطيعــوا) وبــالله الهدايــة للعبــدِ

[1] الشيخ محمد آل عبد الجبار توثيق ببليوغرافي بآثاره المخطوطة والمطبوعة، نزار حسن آل عبد الجبار، أطياف للنشر والتوزيع: القطيف، الطبعة الأولى: ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م: ١٢٨.
[2] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ٦٦.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

وفــى (أنــت منــى)للنبــى دلالــةً عليه وفى(من كنت)مستوثق العقـدِ
فهـذا هـو الـنهج القـويم فسـر بـه تصل برضى الباري إلى جنة الخلـدِ
فيــارب (زيــدي) أتانــا بفحمــةٍ يسامى بها من ديننا كوكـب السـعدِ

بعد أن قام بإثبات مقام أهل البيت عليهم السلام من خلال الآيات القرآنية، أخذ يهجو الزيدي بأبيات لاذعة جاء فيها[1]:

فصــرتم كــأعمى يَســتدل بأكمــه وأعمى لأعمـى لا يـدلُّ ولا يهـدى
فياليــت شــعري إذ أتــى وأتيــتمُ بفاحشــةٍ فــى فعلهــا واجـب الحـدِ
تحدونــه مــن فعلهــا ويحــدكم ابينـوا وأنَّـى ذاك مـن ميـتٍ اللحـدِ
فقـد بـان حـقٌ فـى الأنـام وباطـلُ ولله ما يرضـى مـن الشـكر والحمـدِ
وقد جَـردَ الزيـدي مـن ثـوب دينـه فأصبح ما بـين المـلا عـاري الجلـدِ

شيراز:

شيراز هي مدينة إيرانية، وتقع في منتصف أرض محافظة فارس، وتتمتع شيراز بجو لطيف يميزها عن المناطق القريبة منها كيزد وخوزستان. ويقع في غرب شيراز جبل دراك. وفي شمالها تقع جبال بمو، وسبزبوشان وجهل مقام، وباباكوهي، وهذه الجبال تابعة لجبال زاجروس.

وتعد من أهم المراكز العلمية في إيران، انتقل إليها الشاعر الرمضان في رحلته الأخيرة سنة ١٢٤٣هـ، فبعد خروجه من الأحساء اتجه إلى مدينة يزد فأقام فيها لحقبة من الزمن، ثم اتجه إلى مدينة شيراز، وفيها طاب له المقام وقرر المكوث للطف جوها وطيب وكرم أهلها، فاتصل بأعيانها ووجهائها، وكبار الشخصيات العلمية والتجارية فيها.

وكان من الشخصيات التي أتصل بها راجياً العون على نوائب الدنيا:

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق:٦٧.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

- الحاج علي أكبر النواب: الذي يعد من أعلام شيراز وفضلائها الكبار، وقد كتب قصيدة في الثناء عليه ومدح علمه وكرمه في مناسبة عيدي الغدير، جاء فيها:[1]

يـــا أيهـــا البـــاهر فـــى علمـــه ... وجـــوده الســـامع والمبصـــر
أصـبحت فـى الفضـل ولا أفتـرى ... مالـك مـن شـبيهٍ بـين الـورى
كـــم جهبـــذٍ أعجـــز أقرانـــه ... جاريتـــه فانقـــل القهقـــرا
حتـــى درى أهـــل النهـــى أنـــه ... قـرأ ولكـن مـا درى مـا قـرا
فأنـت فـى العلـمِ شـهابٌ ثاقـبٌ ... وأنـت فـى المعـروف سـيلٌ جـرى
مـــا أمَّ ناديـــك أخـــو حاجـــةٍ ... إلا انثنـــى بـــالنجح مستبشـــراً
فـــلا أتـــى مغنـــاك مســـترفداً ... إلا ســـقاه جـــودك الكـــوثرا

إلى أن يقول:

هـمُ الحبـلُ مـا بـين العبـاد وربهـم ... وذلـك طـول الـدهر متصـل المـدِّ
مخـدومنا النـوَّاب مـن أصـبحت ... غـرّ المسـاعى منـه لـن تحصـرا
علـــى الأكبـــر مـــن فخـــره ... يـــا حبـــذا مفخـــره الأكبـــرا
لا زلـتَ مـن مجـدك ياسـيدى ... بـين البرايـا كوكبـاً مسـفرا
وأسـعد بهـذا العيـد مـا أصـبحت ... سـاحاتك العليـا رحـاب الـذرى
فـــإن ذا عيـــدٌ بـــه أحمـــدُ ... أقـــام بـــالأمر لنـــا حيـــدرا
فأســـــأل الله بأســـــمائه ... يجعـــل منـــه حظـــك الأوفـــرا

- السيد ملا حسن الشيرازي، وهو شخصية لم نعرف باقي أسمه، ويظهر أنه من أهل الثراء والاقتدار المالي، والجود والكرم، وكان بحاجة إلى مساعدته ودعمه، فقال في الثناء عليه، وقد أرهقه العوز[2]:

أبـدى لنـا الله فـى أفـلاك رحمتـه ... بـدراً مـن الفضـل بـالأنوار مشـتعلا
مولى مساعيه فى كسب العُلى غررٌ ... أضحى الزمـان بهـا مستبشـراً جـذلا
فهـو الجـود الـذي تحيـا الأنـام بـه ... وهـو الكـريمُ الـذي مـا فـه قـط بِـلا
عطـاؤه يسـبق الميعـاد منـه ولـم ... تسبق مواعيـده البـذل الـذي بـذلا
قد حاز ما شاء مـن علـم ومـن عمـل ... وزينـة المـرء علـمٌ قـارن العمـلا
غصـنٌ تفـرع مـن دوح الإمامـة فـى ... حجـر النبـوة حتـى تـم واكـتملا

[1] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ٦٧.
[2] الشاعر علي الرمضان طائر الأحساء المهاجر، مصدر سابق: ٦٩.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

فهـو ابـن حيـدرةٍ وهـو ابـن فاطمـةٍ ... وهو ابن أحمد أعلى المرسلين علا
يـابن النبيـين وابـن الأوصـياء ومـن ... معروفه أخجـل الوسـمى إذ هطـلا
أتيتُ جودكَ أرجـو منه ري صـدى ... فـإن جـودك روى فـى المـلا غلـلا
فـامنن علـيَّ بمـا تـروى بـه غللـى ... كفعـل خيـر الـورى آبائـك النـبلا
أنـى قصـدتك أطـوي مهالـك لا ... يـزال قلبـى منهـا خائفـاً وجِـلا
طـوراً أظـل بسـير خائضـاً لججـاً ... مـن البحـار وطـوراً طالعـاً جـبلا
لا قيـت مـا بعضـه مـردٍ فيـا عجبـاً ... منـه وأيسـر مـا لاقيـت قـد قَـتَلا
وهان عنـدي مـا لاقيـت فـى سـفري ... إذ كـان سـيري إلـى مغنـاك مُتصـلا
حتـى أنخـت ركـابى فـي ديـاركمُ ... علـى رجـائى للـرحمن متصـلا
فارحم هديت غريباً حلَّ ساحتكم ... مدّت على جسمه الأسفار ثوبَ بِلا
مـولاي أخرجنـى مـن منزلـى زمـنِ ... أذكـى بقلبـى مـن أوصـابه شُـعلا
أخلـى وقيـتَ يـدى ممـا أعـيش بـه ... وقـد قنعـت بمنـزور فمـا حصـلا
ومنـك أرجـو بمـا آتيـت مـن كـرمِ ... تبـديل عُسـر بيسـر يبـرئ العلـلا
فاعطف عليَّ ومُنَّ وارحم أخا أدبِ ... سـقاه ذا الـدهر صـاباً فاسـقه عسـلا
وأرحم نساء وأطفـلاً خرجـتُ وهـم ... يذرون دمعاً كصوب المزنِ منهملا
يُؤملـون رجـوعى نحـوهم عجـلاً ... فامنن بعـودى إلـيهم سـيدى عَجِـلا
ظنى بفضلك يا مـولاي المـلا حسـنِ ... فـلا يـرد بتكـذيب لـه خجـلا
لا زلت يا شمس أفق فـي ذرى نِعـمٍ ... تجـرُ منهـا علـى رغـم العـدا حلـلا

ومما سبق يتضح جلياً مدى الإقتار الذي كابده الشاعر في أيامه الأخيرة بشيراز، وكيف رماه الزمان بالأرزاء، ووضعه في تلك المنزلة المزرية التي ألبست الشاعر الفاضل غير ثوبه، كما لمسناه في أسفاره السابقة، لذا كانت هذه السفرة من أقصر رحلاته خارج الأحساء وأقساها عليه، فبعد شيراز رحل الشاعر إلى (فيعال).

فيعال:

وهي بلدة لم نستطع التعرف على موقعها بالتحديد، لعلها منطقة قريبة من شيراز زارها الشيخ الرمضان في طريق سفره عند ارتحاله من شيراز، فلقي الإساءة من أهلها، فهجاهم

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

بهجاء لاذع، لكن لأسباب نجهلها أشار لهم بالوزن وليس بالاسم فرمز لهم بـ(فيعال) وهذا الاسم لا يوجد له أثر في القواميس الجغرافية، إلا أن يكون (رمزاً) وإشارة وليس تصريحاً.

والظن الغالب أن المقصود بـ(فِيعَال) نفس مدينة شيراز، وذلك الهجاء للاذع والشديد ربما نتيجة أنه مدح عدد من أعيان البلدة طمعاً في نيل عطاياهم ولكن لم ينل منهم مبتغاه من الجود والكرم، مما تسبب في غضبه وامتعاضه، فهجا البلدة وتفاديا للمشاكل أو خوفاً من الانتقام منه رمز لها بكلمة على وزن (شيراز)، وهي (فيعال)، فقال فيها:

أخـــى أحـــذر بفيعـــالِ مُقَامَـــا فلـــيس لعاقـــل فيهـــا مَقَامَـــا
فـــإن اللُـــؤم مـــن فيعـــال يُعْـــدِي بِـــلا ريـــبٍ كمـــا يُعـــدي الجُـــذَاما

ثم قال في هجوها للتنفير من المقام فيها والمكوث:

إذا جئـــتَ فيعـــالاً فـــلا تلبَـــثنْ سـوى ريثمـا تُخـري بهـا وتبـولُ
فللُّـؤم فـي تلـك الـبلاد عَقَـاربٌ تَـــدُبُ بـــأنواع الـــبَلا وتغُـــولُ

ولعلها كانت آخر بلدة يقيم بها، قبل رجوعه إلى وطنه الأحساء لتكون فيها خاتمة حياته بعد أن أنهكه السفر وأتعبته السنون وقد كبر سنه، ليموت شهيداً محتسبا في وطنه الأحساء بعد أمضى نصف عمره في حياة التنقل والترحال.

خاتمة:

في الرحلة مع الشاعر الرمضان جبنا خلالها مجموعة من المدن والقرى التي زارها الشاعر فكتب فيها أصناف الشعر الأدبي وحيث أننا ركزنا على شعره الوطني المفعم بالشوق والحنين إلى بلاده الأحساء، وقد سلطنا الضوء على عوامل هجرته من خلال استنطاق ما كتبه ،ولم نغفل الآثار التي خلفتها الغربة على حياته، والثمار التي يمكن أن نجنيها من شعره راجينا

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)

من الله أن نكون وفقنا في إعطاء نبذة يسيرة عن شاعر أحسائي كبير وفياً لأهله ووطنه حتى النفس والرمق الأخير من حياته، يلثم تربتها ويرقد في أرضها.

Print to PDF without this message by purchasing novaPDF (http://www.novapdf.com/)